

محاولة في حوكمة عنف جمهور الملاعب

An attempt to govern stadium crowd violence

سيف غابري

gabri.seif.gh@gmail.com

مخبر فيلاب للدراسات الاجتماعية والثقافية والفلسفية،

وحدة "العيش معا"، جامعة تونس (تونس)

ملخص:

الثقافة والمجتمع والعنف... كل هذه المفاهيم وما قارب مدلولاتها مثّلت مواضيع العديد من المشاريع البحثية ومحور جدالات فكرية ومؤسسية مع مطلع الألفية الثالثة خاصة لما رافقها من تغيرات قيمية تزامنت مع الانفجار الرقمي من جهة والهوة بين الأجيال التي لم تزل تتفاقم من جهة ثانية. ومن هنا أصبحت هذه المسائل، وهي فكرية بالأساس، ملحة في طرحها في عصرنا الراهن. وضمن هذا المنطلق تندرج هذه المقالة لمحاولة تفكيك هذه المفاهيم وتنزيلها على الواقع المعيش التونسي في إطار رؤية استشرافية ومقاربة مجتمعية تنضبط وتحترم طبائع المجتمع التونسي والثقافة السائدة فيه. كما تحاول هذه المقالة تقديم مقترحات إجابات عن مجموعة أسئلة راهنة ومحورية أبرزها: ماهي مقومات العنف في الفضاء الرياضي التونسي؟ وماهي المقاربات المجتمعية والثقافية والقانونية الأنسب للتعاطي مع هذه الظاهرة المعقدة؟ الكلمات المفتاحية: وساطة ثقافية، عنف، ثقافة، جمهور، سيميولوجيا اجتماعية.

Abstract:

Culture, society and violence... All these concepts and their meanings have represented the topics of many research projects and the focus of intellectual and institutional debates at the beginning of the third millennium, especially because of the value changes that accompanied them that coincided with the digital explosion on the one hand and the gap between generations that is still exacerbating on the other hand.

Hence, these issues, which are primarily intellectual, have become urgent in our time. Within this premise, this article is an attempt to dismantle these concepts and apply them to the Tunisian living reality within the framework of a forward-looking vision and a societal approach that disciplines and respects the nature of Tunisian society and the prevailing culture in it.

This article also attempts to provide suggestions for answers to a set of current and central questions, most notably: What are the components of violence in the Tunisian sports space? What are the most appropriate societal, cultural and legal approaches to dealing with this disgusting phenomenon?

Keywords: Cultural mediation, Violence, Culture, Social Semiology.

اتجهت العلوم الاجتماعية في العصر الحديث إلى تغليب الدراسات التي تهتم بالوحدات الصغرى كمجال يتيح حظوظاً أوفر للحفر الأركيولوجي الدقيق وذلك من ناحية تحديد الثابت والمتغير في الوحدة الصغرى للعالم الاجتماعي بهدف إظهار البنيات الأشدّ خفاء في مختلف الحقول الاجتماعية التي تكوّن العالم الاجتماعي. والرياضة عموماً وكرة القدم على وجه الخصوص هي عامل إنشاء مجموعات اجتماعية على نمط غير مألوف وإن تشابه مع أنماط سالفة وأهمها "القبيلة" فيما تعلق بالرابطة العصبية والتضامن.

من جهة أخرى قد توحى المشاحنات والمشاجرات وأعمال العنف والتخريب خلال المقابلات الرياضية وبعدها، بأنّ ملاعب كرة القدم أماكن خطيرة ترتادها مجموعات تهدّد أمن الأفراد وسلامة المنشآت والاستقرار الاجتماعي. وفي واقع الأمر، ليست هذه المناسبة الأولى التي تُهاجم فيها الثقافة الشبابية التي تكشف عن نفسها بطريقتها المبتكرة والمختلفة. ولا يعني هذا أنّ المقابلات الرياضية والمدرجات الملاعب لم تكن مسرحاً لأعمال عنف خطيرة أو أقله أنها كانت سبباً في إثارة النعرات الجهوية والعرقية والدينية والإيديولوجية، ولكن وجب التذكير بأن الدراسة العلمية الموضوعية لمثل هذه الظواهر المعاصرة والخطيرة ينبغي أن تتجاوز الانطباعية والحجاج المخادع لصالح القراءة الجادة في ردود الفعل التي يوحى بها الجمهور الرياضي إلى المتلقين وطبيعة الأفعال التي يرتكبها هؤلاء "المشاغبون".

"فالأحداث التي تندلع في مباريات كرة القدم كانت تُفسّر على أنها تعبير عن الكراهية من قبل الطبقات الكادحة أو ردّ فعل ضد ما يسميه Ian Taylor مشهدية رياضية"¹ وهو تفسير أغفل الديناميكية الاجتماعية لرواد المدرجات، ولم يقدّم وصفاً وتفسيراً واضحاً لنماذج التصرف الاجتماعي لتلك المجموعات. "فعلى عكس التصرفات الشعبية الرتيبة والتي تعوزها الصفات الفردية المميّزة حيث نجد سلوكاً فوضوياً وعنفاً مجانياً، فإنّ التصرفات الجماعية التي تجتاح ملاعب كرة القدم هي محكمة التنظيم وتخضع لمجموعة من القواعد والاتفاقات والتقاليد الاجتماعية"². وأنّ الجمهور النشيط والفاعل يتعامل مع سلطتين: السلطة البيروقراطية والقمعية لأجهزة الدولة من جهة وسلطة الفضاءات الافتراضية سريعة الحركة والتفاعل من جهة أخرى...

ضمن هذا السياق نطرح التّفكّر في مدى فعالية اعتماد الوساطة الثقافية آلية لحوكمة الجمهور الرياضي باعتباره مجموعة اجتماعية ذات خصائص مميّزة أو ثقافة فرعية أو ثقافة تجاوز Culture of transgression.

¹ سلامة (عبد الحميد)، الرياضة: مظاهرها السياسية والاجتماعية والتربوية، الدار العربية للكتاب، تونس، 2005، ص 171.

² سلامة (عبد الحميد)، مرجع سابق، ص 174.

1. الإطار النظري والمفاهيمي

إن للثقافة حسب Bourdieu "خصوصيات ومميزات تتجسد في سلوك الأفراد وممارساتهم وطرق عيشهم وأنماطها فهي تصوغ شخصيات الأفراد وتوجه رغباتهم وأفكارهم وتحدد ملامح هوياتهم"³. وضمن هذه المقولة يشغلنا التساؤل عن الكيفيات التي تساهم بها الممارسات الثقافية في بناء الهوية الذاتية للشباب. مع وعينا بأن ظاهرة العنف الرياضي أو عنف الفضاءات الرياضية ليست شبابية فحسب وإن غلب عليها الطابع الشبابي، وأن اختيار الفرد للممارسات الثقافية التي يعبر بها عن ملامح هويته فيه محاورة للهوية الجماعية تثري الجدل حول ما إذا كانت الهوية تماثل أم تختلف، خاصة وأنّ كثرا يرون في الشباب قيمة اجتماعية في حالة انتظار وعلى هامش المجتمع وفي حالة تبعية ووصاية وعند آخرين طلائع ثورية وقوة الدفع الذاتية للمجتمع.

إنّ الوعي بخطورة عنف الملاعب ساد جميع الفاعلين في المشهد الرياضي التونسي الذي ابتلي كغيره من المجتمعات الأخرى بداء العنف والتعصب. وبالتالي أصبح المجتمع التونسي مدعو إلى البحث عن الحلّ الملائم لمعالجة هذه المعضلة.

ولكن ما وجب التأكيد عليه هنا، أنّ معتققي ثقافة جمهور كرة القدم أو ما اصطلاح عليهم "مجموعات الألتراس" ليسوا الفاعل الرئيسي في تفاقم ظاهرة العنف في المجتمع التونسي، مثلهم في ذلك مثل أيّ مجموعة أخرى مشابهة: فسهولة التعرف عليهم وتمييزهم من جهة وممارساتهم الواضحة والمكشوفة من جهة ثانية، قد يفسران ذلك الانطباع السيئ الذي رسخ في الأذهان حتى اقترن التشجيع الرياضي بالعنف.

وهذا ليس دعوة لتبرير عنف الجماهير في الملاعب الرياضية، ولا هو دعوة إلى التطبيع مع المشاغبين وتخفيف عقوباتهم. لكنه دعوة إلى ضرورة معالجة هذه الظاهرة الخطيرة بطرق أنجع.

وهو أمر سهل التحقيق والبلوغ إذا توفّر شرطان رئيسيان ومتلازمان:

- الابتعاد عن التحاليل والتقارير الانطباعية والكلاسيكية المجترّة والتي أثبتت فشلها في تشخيص الظاهرة وبالتالي فشلها في تقديم حلول ناجعة.
- الاطلاع على ثقافة ملاعب كرة القدم محليا ووطنيا ودوليا بصورة عميقة وواعية وموضوعية، والإلمام بالأحداث والممارسات التي تدور في الفضاءات الرياضية إماما واسعا وشاملا وما تحمله من رهانات اجتماعية.

³ الذوايدي (محمود)، قراءة أبجدية الثقافة بمنظور مختلف، الممارسة الثقافية في مجتمع المعلومات والاتصال، منشورات المركز الوطني للاتصال الثقافي، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، تونس، 2000، ص 27.

ومن أدوات التحليل الممكنة: السيميولوجيا الاجتماعية، المنهجية الإثنية، القبلات الجديدة.

1) السيميولوجيا الاجتماعية:

لعلّ من دوافع الحاجة إلى رؤية سيميو-سوسولوجية شاملة في مجتمعنا المحليّ المعاصر ضيق الفضاء العام، بمعنى ضيق مجال حرية الفعل والمبادرة والتغيير، ممّا ساهم في ازدهار نشاط العلامة والاستعارة Codes كشكل من أشكال المراوغة والتخفي "وما أكثر ما تخفيه الاستعمالات الاجتماعية للغة والاستعارات الاجتماعية والسنن المتداولة بين الناس في المجتمعات التي تسطو فيها الدولة على المجتمع".⁴

ينخرط هذا البحث، نظرياً وميدانياً، في لعبة العلامة الاجتماعية وهي تتحرّك في المجال الاجتماعي. ويتعلّق الأمر فيه برصد حركة هذه العلامة ضمن عالم سوسيو-ثقافي وتاريخي معيّن ومحدّد. وهو ما يدفع في اتجاه مقارنة سوسيو-سيمولوجية لا تكتفي فقط ببناء نسق العلامات، بل تربطه بالسياقات الاجتماعية التي أنتجته، فيما يمكن اعتباره محاولة الإمساك بالمعنى وبلعبة العلامة ضمن سيرورة من التحولات ومن الروابط الاجتماعية. وهو مشروع علمي يطمح إلى تجاوز ما يقف عنده -عادة- كلّ عمل سيميولوجي منحصر في أفق العلامات وأنساقها، ليبني نسجها ضمن واقع اجتماعي متغيّر ممّا قد يسمح بالحديث عن سيميولوجية الفعل أو الظاهرة الاجتماعية. ويتعلّق الأمر، هنا، بسيميولوجيا تبحث في الدلالة لا تنحصر في البعد الإخباري فقط، بل إنها تتجاوز ذلك لتبني أنساق الأشياء والظواهر وتعيد بناءها. إنّ البعد الرمزي للظواهر الاجتماعية. "وقد تذهب بنا قراءة الدلالة بعيداً إلى المستوى الذي يمكن معه التوسّع في الدلالة **Meaning** لمعانقة التّدال **Significance** الذي يبسط جناحيه خارج الثقافة وخارج المعرفة والمعلومة".⁵ هكذا هي "العين السيميولوجية"، سواء تعلّق الأمر بالدلالة أو التّدال، فإنها تحاول أن ترى ما لا يُرى عادة في الظواهر والممارسات والأشياء، فتكشف عن الخفي الكامن الذي استعصى على مجهر السوسولوجيا وراوغ النظريات النفسية والسيكولوجية. فالسيميولوجيا تتأمّل الدال لتلامس أبعاده الدلالية المختلفة مشبعة كانت أو فارغة.

ولا يقف الطموح عند دراسة النسق العلانقي القائم بين مكونات الظاهرة الاجتماعية فقط، بل إنّهُ يمتدّ إلى ربط هذا النسق بالعلاقات القائمة وبالسياقات التي يتحرّك فيها، فتخرج بذلك من سكون النسق إلى حركة الفعل، ممّا يجعل أساس مشروعنا هو تتبع حركة جولان العلامة في مجال خصوصي: الملعب وامتدادته وفي الزمن الراهن في المجتمع التونسي. فالعلامة ليست معزولة، بل هي نتاج فعل تاريخي وسياق جغرافي ومعطى اجتماعي.

⁴ بوعزيزي (محسن)، السيميولوجيا الاجتماعية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2010، ص 76.

⁵ بوعزيزي (محسن)، مرجع سابق، ص 44.

وهو ما يجعلنا نتأمل باهتمام مستحق قول Barthes "نعيش حضارة إيحائية وهذا ما يجعلنا نتأمل الحمولة الأخلاقية للظاهرة".⁶

ولئن كانت السيميولوجيا ترصد للعلامة وأنساقها في مختلف مواضعها، فإن السيميولوجيا الاجتماعية "تقتفي أثر العلامة وقد خضعت للصرف بوطأة الاجتماعي عليها، على معنى اختلافها باختلاف الفئات والجغرافيات الاجتماعية فينسب فيها المعنى بحسب الفاعل".⁷ فالعلامات تصبح قابلة للتصريف بحسب معطيات سياق إنتاجها واستعمالها، كأن ترتبط العلامة بروابط القوة أو أن تعبر عن معاني الإقصاء والتهميش أو تقترب بالفقر. ولعل أبرز ما يمكن أن يحققه "تزاوج" السيميولوجيا بالاجتماعي، هو اقتفاء أثر جولان العلامة أفقياً وعمودياً سنكرونياً ودياكرونياً. فنصبح، هنا، إزاء علامة مشبعة دلاليا لأن مرجعها المجتمع، تختلف وتتعارض بحسب الطبقات والفئات الاجتماعية. ومن هذا المنطلق، فإن السيميولوجيا الاجتماعية تتجاوز الفهم نحو التفسير وتذكر بالقواعد الاجتماعية التي تبني الأنساق. "فالعلامة قد تقاوم القمع بتضميناتها وبمجازاتها واستعاراتها حين يراقب الحاكم الحرف والكلمة لاعتبارات أمنية، فيتحول الإحياء سلاح الضعفاء".⁸

(2) المنهجية الإثنية:

نظرا لخصوصية مجتمع الدراسة الجمهور/الحشد الرياضي⁹ الذي يكتسي البعض من خصائص المجموعات الإثنية من حيث التماثل والتضامن والانضباط بالقوانين الأخلاقية للمجموعة، نقترح محاولة الاستفادة من المنهجية الإثنية¹⁰ Ethnométhodologie التي تحلل الأنشطة اليومية باعتبارها ممارسات يتبعها الفاعل الاجتماعي تظهر بشكل منطقي ومرئي وممكنة الوصف. حيث "تشخص الإثنوميتودولوجيا العمليات التي من خلالها يدرك الناس من هم ويقدمون تقريراً عن ذاتهم ويكشفون عما يقومون به في نشاطهم اليومي وفي سياقات التفاعلات المتنوعة".¹⁰ فهم يهتمون بالأعمال الأكثر سخافة في الحياة اليومية بهدف إدراك إجراءات

⁶ بارط (رولان)، مبادئ في علم الأدلة، ترجمة محمد البكري، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط2، دمشق، 1987، ص 3.

⁷ بوغيزي (محسن)، مرجع سابق، ص 48.

⁸ بوغيزي (محسن)، مرجع سابق، ص 48.

* "خلافاً للحشد الذي يتشكل من تماثل نفسي يعتمد على الاتصال العضوي، فإن الجمهور أو الجماهير تتقدم بواسطة التنشئة الاجتماعية. فالفرد لا يمكنه أن ينتمي إلى أكثر من حشد في نفس الوقت، لكن يمكنه أن ينتمي إلى أكثر من جمهور في نفس الوقت".

Aebischer (Verena), Oberlé (Dominique) ; **Le groupe en psychologie sociale** ; Ed. DUNOD ; 4^e Edition ; Paris ; 2012 ; P.25.

* تتحدد المنهجية الإثنية بوصفها "علم المنهج الإثني أي أنها الحجج والمعارف العلمية التي يضعها الفاعلون الاجتماعيون في حياتهم اليومية" حيث "انفصل Harold Garfinkel عن التقليد الوضعي الذي يجعل من المجتمع واقعا موضوعيا ومن الفاعل أحماقا ثقافيا يفتر سلفا سلوكياته" معتبرا أن لأعضاء المجتمع "حسا مشتركا ولهم خزان من المعارف العلمية التي يختبرونها من أجل التواصل واتخاذ القرارات وإقامة الحجج بطريقة طبيعية".

دورتيه (جان فرانسوا)، معجم العلوم الإنسانية، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع وهيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، بيروت- أبو ظبي، ط 1، 2009، ص 1018-1020.

¹⁰ مالتار (أرمان وميشال)، تاريخ نظريات الاتصال، ترجمة نصر الدين لعياضي والصادق رابح، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت، 2005، ص 149.

العمل "ويتبنون في ذلك الخطوات الإثنية الوصفية: نظر مباشر، مقابلات، نظر بالتشارك".¹¹ وتؤكد المنهجية الإثنية على مركزية الملاحظة بالمشاركة أو الانصهار داخل مجتمع البحث "فهذا النوع من البحوث يولي أهمية كبرى للملاحظة بالمشاركة كتقنية بحثية لاكتشاف الآخر من الداخل عبر المعيش اليومي وهذا يتم عبر الاندماج".¹²

(3) العودة إلى القبلية:

رغم تشبّع المجتمعات بمنتجات الحداثة، إلا أننا نجد ونلمس في زمننا شيئاً من الحنين أو العودة إلى القديم أو بالأحرى حبّ لإعادة التشكّل والتنظيم على شاكلة القبيلة حتى أنّ Maffesoli عبّر عنها بالقبلية الجديدة The New Tribalism ، والتي مثّلتها بشكل واضح وجليّ الجماهير الرياضية عبر خلايا الأنصار ومجموعات التشجيع. فالقبلية حسب Maffesoli هي النرجسية الجماعية التي تحوّلت من أساس تكوّن ودعم الوحدة القبلية إلى نمط حياة بصورة ما في المجتمعات الحديثة من تنوّع الروابط وعدم اختصارها على روابط الدم والقربا، بل إنّها في صورتها يمكن أن تقابل بين الأقارب (مشجعي فرق مختلفة ضمن العائلة الواحدة). ويعتبر Maffesoli أنّ هذه الظاهرة ناتجة عن صيغة مستجدة للتطبيع الاجتماعي Socialization لا تحتوي -ضرورة- على كلّ مكونات الجمعة أو التطبيع وتكون نتيجتها الأساسية الاندماج في مجموعة وتجاوز الذات من ناحية، وتعدّد مجموعات الانتماء في نفس الوقت بما يبرّر اعتبار الأمر انزياحاً من منطق الهوية في معناها المركّب والعميق إلى منطق المماثلة Identification الذي تقتضيه شروط الحياة الاجتماعية الحديثة. ولعلّ أهمّ خصائص هذه القبلية الجديدة حاجتها للمسرحة The Need to be Shouted للتعبير عن ذاتها، مع العلم أنّ المماثلة تقتضي إجماعاً ضمناً على أمر ما والتزام أخلاقي وجمالي Ethics and aesthetics، والذي هو بصورة من الصور مجموعات التشجيع الرياضي.

II. مظاهر تشكّل العنف في الفضاء الرياضي التونسي:

لدراسة ظاهرة العنف لدى الجمهور الرياضي، فإنه لا مفرّ من تناولها من منظور اجتماعي باعتبار ظاهرة العنف ظاهرة اجتماعية تنتج عن التفاعل الاجتماعي بين مختلف الفاعلين الاجتماعيين في مجتمع معيّن كما هو الحال في المجال الحقل وخاصة لدى فئة الشباب والتي تمثّل العمود الفقري لمجموعات التشجيع المختلفة في توجهات بعضها بعض بما يخلق مجال لانتشار الرموز والطقوس في التفاعل فيما بينها.

¹¹ دورتيه (جان فرانسوا)، معجم العلوم الإنسانية، ترجمة جورج كنورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع وهيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، بيروت-أبو ظبي، ط 1، 2009، ص 1018.

¹² طعم الله (خميس)، مناهج البحث وأدواته في العلوم الاجتماعية، مركز النشر الجامعي، تونس، 2004، ص 64.

كما يستمد الاهتمام السوسيولوجي أهميته من شعبية الرياضة والمسابقات الرياضية، وكرة القدم بصفة خاصة، في الحياة الاجتماعية. فلظاهرة موضوع البحث بالغ الأثر على النظام الاجتماعي وشبكة العلاقات بين الفاعلين الاجتماعيين داخل المجتمع الواحد.

ولعل الاعتماد على تقنيتي المقابلة والملاحظة يمكننا التعمق في مختلف الجوانب النفسية والاجتماعية. وبهذا أصبح من الممكن تناول العنف في الرياضة على أنه إشكالية نفسية واجتماعية وثقافية وسياسية خاصة وأن ظاهرة Hooliganism تختلف من مجتمع لآخر باختلاف الخصائص الاجتماعية والثقافية والسياسية لكل مجتمع. وهو ما حاول Frank Moray رصده ف بحثه حول مباراة "دربي العاصمة" حيث بين أن البعض يحمل لعبة كرة القدم ما لا يعينها فيخرجها -قصدا أو سهوا- من طور المنافسة الرياضية إلى طور الصراع السياسي والطبقي والفنوي "فموقعة الذات وإبراز الهوية هي أصل الرهان والمبتغى الذي أصبحت تلهث وراءه الجماهير الرياضية".¹³

وقد بينت مختلف البحوث والدراسات الاجتماعية السابقة أن المجتمع هو الدافع الأول لبروز ظاهرة العنف في الرياضة: حيث تعتبر الفئة السياسية، على اعتبار مكانتها الاجتماعية، المساهم الأول في انتشار العنف داخل الملاعب وفي صفوف جماهير كرة القدم في تونس خاصة وأن نمط التشجيع وطريقة التفاعل فيما بينهم تختلف باختلاف الإطارين الزماني والمكاني وهو ما ساهم في تصاعد موجات العنف. ودائما بالعودة إلى العمل الميداني تمكنا من رصد ثلاث مظهرات للعنف: عنف رمزي وآخر لفظي وأخير مادي.

ويُعتبر مفهوم العنف من المفاهيم المفتاح في رصد ظواهر العنف في الفضاءات الرياضية رغم ما يعترضه من لبس أحيانا وغموض في بعض الأحيان وتداخل المعاني في أحيان أخرى: فكما يمكن أن تشير لفظة عنف إلى معاني القوة والسلطة، قد تشير في مواقع أخرى إلى معنى العدوان إلا أنها في كل الأحوال "ضغط جسدي أو معنوي ذو طابع فردي أو جماعي ينزله الإنسان كالقدر الذي يتحمله على أنه مساس بممارسة حق أساسي".¹⁴ ويعرفه Robert McAfee Brown أنه "انتهاك للشخصية وأنه تعدّ على الآخر أو إنكاره أو تجاهله ماديا أو غير ذلك".¹⁵ وفي معجمه الفلسفي، عرّف جميل صليبا العنف "كفعل مضاد للرفق ومرادف للشدة والقسوة (...)

¹³ Moray (Frank), **Football et Politique à Tunis**, Correspondance Bulletin scientifique d'IRMC, N° 48, Décembre 1997, P.5.

¹⁴ بودون (ريمون)، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة سليم حدّاد، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 1، الجزائر، 1986، ص 397.
¹⁵ أسعد وظفة (علي)، من الرمز والعنف إلى ممارسة العنف الرمزي: قراءة في الوظيفة البيداغوجية للعنف الرمزي في التربية المدرسية، مجلة شؤون اجتماعية، عدد 104، الإمارات العربية المتحدة، 2009، ص 65.

فكل فعل يخالف طبيعة الشيء، ويكون مفروضا عليه من الخارج هو بمعنى ما فعل عنيف violent. والعنف أيضا القوي الذي تشد سورته بازدياد الموانع التي تعترض سبيله كالريح العاصفة والثورة الجارفة".¹⁶

أما المعجم النفسي-الاجتماعي فيعرّف العنف على أنه "السلوك المراد منه إلحاق الضرر والألم بالآخر مع سابقة النية لذلك"،¹⁷ ويميّز هنا بين صنفين منه:

- السلوك العدواني الاندفاعي impulsive aggression: وهو المبني على الاستثارة المزعجة والعوامل المكونة للشخص مروراً بجملة من المتغيرات المعرفية والفيزيولوجية.
- السلوك العدواني الأداة Instrumental Aggression: وهو السلوك العدواني المخطّط له والمدرس مسبقاً والمعتمد كأداة لتحقيق غايات انتفاعية مادية ومعنوية.

وفي الفضاء الرياضي التونسي، ورد العنف في أشكال وأنواع مختلفة لا سيّما عنف الجماهير خاصة العنف بين مجموعات الجماهير (وهي ظاهرة إن لم تكن كونية إلا أنها غالبية على المشهد الرياضي في مختلف الأقطار العربية والعالمية، وقد تختلف شدتها وحدتها من بلد لآخر وأحياناً من منطقة لأخرى). حيث يتطور بين هذه المجموعات بصفة تدريجية من الفرد ليشمل المجموعة: ففي حين يساهم الحشد من جهته في الاندفاع، يتكفل الانفعال في بلوغ أقصى درجات العنف. وقد تتحد ظاهرة "عنف الملاعب" مع ما اصطلح عليه "عنف الشباب" خارج الفضاء الرياضي كردة فعل عن عنف مؤسسة الدولة في شكل شعارات وأهازيج حاملة لمضامين سياسية أو اجتماعية أو دينية.

وقد تضمّن عنف الملاعب التونسية ممارسات فعلية ومادية أقل ما توصف به "قلة الرفق" أو "البربرية" على حد تعبير Marc Perelman (أي تلك التصرفات التي تلحق الضرر بالملك العام والمنشآت داخل الفضاء الرياضي)، وممارسات منتسبي مجموعات التشجيع فيما بينهم فيما يمكن اعتباره تعبير عن حالة من الرفض للأوضاع السائدة من جهة وحب السيطرة وإقصاء الآخر من جهة أخرى. ولعلّ أهم ما يميّز عنف الملاعب أنه ليس حكراً على الجماهير والسباب الطائش فقط، بل إنه يشمل كلّ الفاعلين في المجال الرياضي (مدربين، لاعبين، مسيرين، هياكل رياضية، إعلام رياضي...): فهو يتشكّل انطلاقاً من آراء الفاعلين وتصورهم لأدوارهم، وهو غير منفصل عن السياق الاجتماعي العام السائد داخل المجتمع. "ومن ناحية أخرى فإنّ الممارسة الرياضية كلّما

¹⁶ صليبا (جميل)، المعجم الفلسفي، جزء 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص 670.

¹⁷ زغفران (العبيدي روضة)، شلبي (جلول)، العبيدي (حافظ)، جرائم العنف لدى الشباب التونسي: دراسة علمية ميدانية، مركز الدراسات القانونية والقضائية، وزارة العدل، تونس، 2013، ص 12.

كانت خاضعة للانفعالي ولثقافة الانتصار والغلبة، وبالتالي هاجس النتيجة كلما تحولت الفرجة الرياضية إلى مشاحنة مولدة للعنف".¹⁸

1. نبذة

تاريخية

حول

ظاهرة

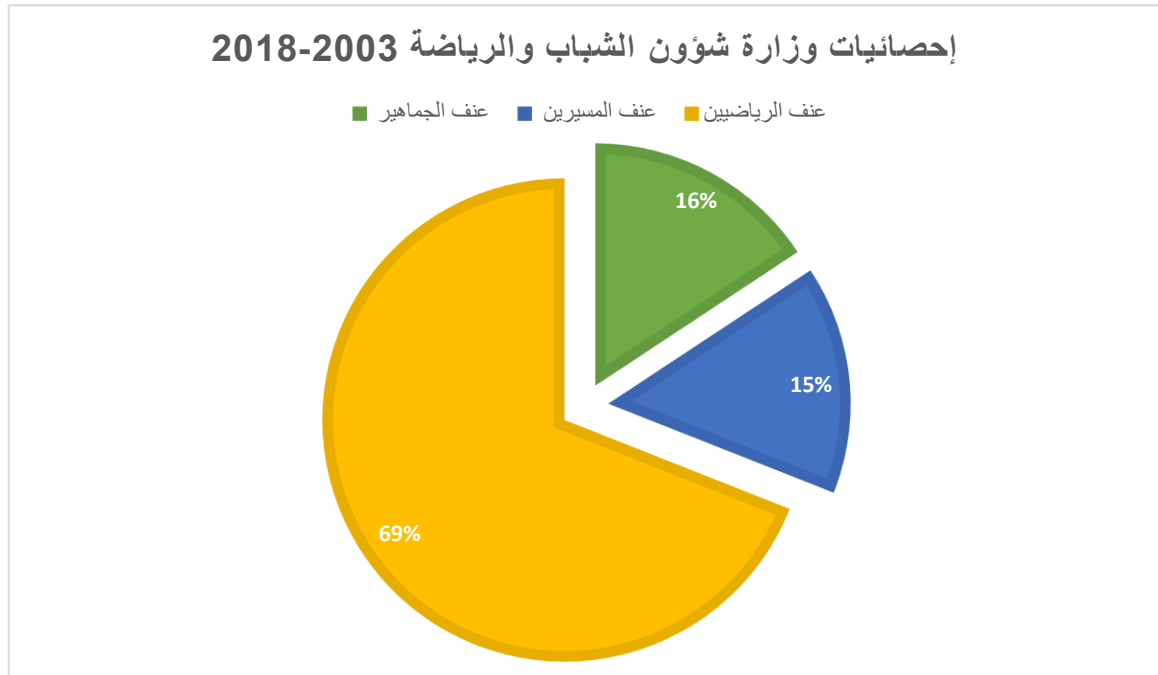
العنف

الرياضي

أو

الشغب

في



الملاعب الرياضية حول العالم:

نقف في هذه الورقة البحثية أمام ظاهرة قديمة نسبياً، فظاهرة الهوليجانز HOOLIGANISM، كظاهرة للعنف الملاحظ على هامش ممارسة بعض الرياضات، ظهرت في بداياتها في إنجلترا في نهاية القرن التاسع عشر. وقد استعمل هذا المصطلح منذ 1898 للإشارة إلى اللصوص المتسكعين في مدينة لندن، ليتطور ويشيع استعماله للإشارة إلى الجمهور الرياضي المندفع والمتهور في ملاعب كرة القدم، والذي يميل إلى استعمال العنف نتيجة إفراطه في الشعور بالهوية المحلية أو الوطنية، وخاصة في فترة الأزمات الاقتصادية والسياسية.

وليست صدفة أن يكون السبب في نشوء هذه الظاهرة، هو الحشود الغفيرة المنحدرة من الطبقة العمالية التي جاءت لمساندة أحد الأندية الرياضية أثناء إحدى مباريات بطولة كرة القدم الإنجليزية سنة 1880، فكانت الوضعية السيئة والهামشية التي خصصت لهذه الحشود في الملعب، سبباً مستقراً لمشاعرها ومؤججاً لانفعالاتها التي خرجت عن المألوف وتسببت في أحداث شغب عارمة.¹⁹ وقد تكاثف تواتر هذه الظاهرة في الخمسينيات من

¹⁸ Bourdieu (Pierre) ; **Questions de Sociologie** ; Cérès Productions ; Tunis ; 1993 ; P. 186.

¹⁹ aljazeera.net (الهوليجانز.. جماهير تعيثُ فساداً في الأرض | مفاهيم ومصطلحات | الجزيرة نت) consulté le 25/4/2022 à 11 :39.

القرن الماضي في الملاعب الرياضية الإنجليزية، لتنتشر الظاهرة في باقي دول أوروبا كألمانيا وهولندا وبلجيكا وإيطاليا واليونان وتركيا، وبل وأيضاً في دول أمريكا اللاتينية بعد ذلك: ففي العاصمة "Lima" بالبيرو، لقي حوالي 320 مشجعا رياضيا مصرعهم، سنة 1967، نتيجة حريق مهول اشتعل في الملعب. وفي نفس السنة قتل حوالي 40 شخصا في تركيا، في لقاء محلي لكرة القدم استعمل فيه السلاح الأبيض. وفي إنجلترا، كان سقوط أول ضحية بالميادين الرياضية سنة 1974 في مدينة Blackpool. بيد أن مأساة ملعب Heyssel في بروكسيل سنة 1985 تبقى راسخة في الأذهان. فقبل انطلاق المباراة بين فريق "ليفربول" الإنجليزي و"جيفونتس" الإيطالي في مباراة نهائي كأس أوروبا، اعتدى المشجعون الإنجليز على المشجعين الإيطاليين، فأسفرت المواجهات حول شبابيك الملعب عن مصرع 39 شخصا من بينهم 37 إيطاليا. وقد كانت هذه الأحداث بداية تراجع ظاهرة الهوليجانز HOOLIGANISM على إثر منع الأندية الرياضية الإنجليزية من المشاركة في مباريات الكؤوس الأوروبية لمدة خمس سنوات، كما أن الشرطة البريطانية ضاعفت من طرق رصدها ومراقبتها للجمهور المشاغب بإحداث ملفات حول المشجعين الأكثر تهورا وعنفًا.

وقد قادت بعض أحداث العنف والشغب في الفضاءات الرياضية إلى الوقوع في خلط بين العنف الرياضي وظاهرة الحشود، من ذلك مثلاً مأساة ملعب Sheffield والتي أودت بحياة 95 مشجع رياضي سنة 1989 والتي نُسبت خطأً إلى الهوليجانز في حين أن هذه المأساة كانت نتيجة لخطأ فادح في التنظيم: حيث عمد المنظمون في الملعب إلى إدخال حوالي 4000 متفرج بدون تذاكر إلى مدرج مسيح، مزدحم وبمنافذ صعبة للخروج! وفي سنة 1998، عاشت الجماهير الرياضية حادث الاعتداء الوحشي على عون أمن، من طرف شاب ألماني على هامش لقاء كأس العالم في مدينة Lens الفرنسية، وهو ما زاد من حدة النقاش حول أمن الملاعب الرياضية.

2. العنف الرمزي في الفضاء الرياضي التونسي:

لقد أدى الاستخدام العام والساذج لمفهوم العنف الرمزي إلى إضعاف دلالاته الواضحة وتفريغها من الاعتبارات السوسيولوجية لأصولها الفكرية (ومما زاد الطين بلة أنّ مفهوم الرمزي* غامض في أصوله فهو لا يزال يحتاج إلى مزيد من الوقت حتى يتجاوز مرحلة الاختمار إلى مرحلة النضج والتكامل). ويمكن أن نجزم هنا أنّ مفهوم العنف الرمزي Symbolic Violence (وما جاوره من مفاهيم السلطة الرمزية ورأسمال الرمزي وغيرها...) من أكثر مفاهيم السوسيولوجيا غموضاً وإثارة للجدل. كما وجب الاعتراف أنه لا يزال عصياً على التحديد العلمي

* يعرف المعجم الفلسفي للغة العربية الرمزية بأنها "نسق من الرموز للدلالة على معان خاصة أو التعبير عن حقائق ومعتقدات، ومنه الرمزية الأدبية والرمزية الفنية، وكثيراً ما اعتمد في الطقوس والتعاليم الدينية".
مذكور (إبراهيم)، معجم اللغة العربية: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1982، ص 92.

الدقيق والصارم رغم تعدّد محاولات ترويضه التي لم تفلح في إحراج هذا المفهوم إلى مرحلة النضج والتكامل نظير ما ينطوي عليه من تشابك وغموض وضبابية.

ويرى Bourdieu أنّ العنف الرمزي يتجسّد بين الفاعلين الاجتماعيين من خلال سلطة رمزية داخل الفضاء الاجتماعي وخارجه. فهي "أيّ نفوذ يفلح في فرض دلالات معيّنة بوصفها دلالات شرعية، حاجبا علاقات القوة التي تؤصل قوته".²⁰ ويعرّف الاجتماعي الفرنسي Bourdieu الهيمنة الرمزية بـ "السلطة الرمزية وهي سلطة خفية لا مرئية والتي لا يمكن أن تُمارس إلّا بتواطؤ أولئك الذين يريدون الاعتراف بكونهم يخضعون لها".²¹ هذه الممارسات الرمزية المنتشرة في المجتمعات على اختلاف خصائصها ودرجة تطورها يتفرّع عنها، حسب ما أثبتته التجربة الاجتماعية، صراع رمزي يفترض تصوّرا معيّنا عن العالم الاجتماعي الذي يشترط أن يكون أكثر تواؤما مع رغبات وحاجات ومصالح "الأفراد المهيمنين".

هذا الاحتكار والهيمنة يتجسّدان خاصّة من خلال الاستقادة من تطوّر عدد المنخرطين والموالين داخل مجموعات الألتراس التونسية وأقدميّة التأسيس والتحالفات المبرمة بين المجموعات بهدف فرض نمط من الهيمنة من ذلك مثلا ثنائي Leaders Clubistes و Doddgers Clubistes في المدرجات الشماليّة، و Zappatista و Supra في المدرجات الجنوبيّة. ومن هنا تبث هذه المجموعات والأفراد نظام تصوراتها وخطابها ولغتها الخاصة سعيا لتبرير وشرعنة هيمنتها في المجال الرياضي، فتزداد قوة علاقات التفاعل الاجتماعي والهيمنة والغلبة وهو ما له تأثير واضح وأكيد على الممارسات العينية الظاهرة بين هؤلاء الفاعلين الاجتماعيين التي تصبح متواترة ومتكررة.

هذا ما قادنا إليه الاستطلاع الميداني خاصة وأنّ مثل تلك الممارسات تزيد من شدّة الاضطرابات والتوترات وتؤسس لغلبة مجموعة على حساب أخرى، وهو ما أكّده Bourdieu حين صرّح أنّ "كلّ سلطة من العنف الرمزي هي كلّ سلطة تتوصّل إلى فرض معنى على أساس أنها شرعية مع إخفاء علاقة النفوذ التي تهيكل في أساس قوتها وإنّما هي تضيف قوتها الخاصة أي بضبط قوتها الرمزية والتي لها علاقة بالنفوذ".²²

فالعنف الرمزي، إذن، لا يشترط وسائل ماديّة للإخضاع بقدر القدرة الفائقة على ترسيخ وضعيات الهيمنة والقوة والتمكّن والجبروت داخل الفضاء والمجال الاجتماعي المستهدف. ولعلّ المجال الرياضي أكبر مثال اجتماعي

²⁰ الكشوري (غسان)، الرمزية في العنف... داعش كنتيجة، <http://www.thewhatnews.net> بتاريخ 2017/10/28 على الساعة 00:10.

²¹ Bourdieu (Pierre), *Sur le Pouvoir Symbolique*, Ed. Minuit, Paris, 1997, P. 405.

²² Bourdieu (Pierre), Passerons (Jean Claude), *La Reproduction Elément Pour la Théorie Du Système D'enseignement*, Ed. Minuit, Paris, 1970, P. 12.

حي على ما سبق: فهذا الفضاء الشاسع، الذي يغلب عليه طابع التحرر من كافة أشكال المراقبة الاجتماعية، تكثر فيه العلاقات الاجتماعية وتتشابك، وتتعدّد فيه مظاهر التفاعل الاجتماعي وتتداخل، فتصبح العلاقات فيه غير متوازنة وقد تصل حدّ التضارب أحيانا وبذلك تكون هذه العلاقات الاجتماعية في ديناميكية متواصلة.

3. العنف اللفظي في الفضاء الرياضي التونسي:

وإذا كان العنف الرمزي عنفا خفياً غير معلن، فإنّ العنف اللفظي عنف ظاهر بالممارسة، وهو ما تبيناه من خلال الملاحظة المباشرة داخل الفضاء الرياضي (الملاعب، الحديقة الرياضية، المقاهي، منتديات الجماهير...) وخاصة من خلال الأهازيج والشعارات التي ترفعها الجماهير: "فكلّ جملة تُنطق هي فعلٌ كلامي يُفسّر لا بمعناه بل بتأثيره".²³ ولعلّ اللآفت للانتباه هنا، انتشار استخدام الكلام المصنف بذئناً أي الكلام الخارج عمّا اتفق عليه اجتماعيا وثقافيا بحيث يمس أخلاقيات المجتمع. فالعنف اللغوي "قد يستعمل طرق الجذور أو عنف الإهانة، وأيضا العنف الجماعي للظرف اللغوي العام وعنّف اللا شعور".²⁴ فالعنف اللفظي هو "سلوك منطوق أو مكتوب يتخذ طابعا هجوميا أو دفاعيا يمارسه فرد أو جماعة أو هيئة وذلك عند حصول ضرر مادي أو معنوي أو عند صراع حصول مواجهة أو صراع أو اعتداء".²⁵ وفي واقع الأمر فإنّ العنف اللفظي أو الإساءة اللفظية هي الأكثر تداولاً بين مختلف الفاعلين الرياضيين (مشجعين، مسيرين، لاعبين...) حيث يعتبر شكلا من أشكال الممارس رغم ارتباطه بالقهر النفسي إلا أنه يبرز من خلال غياب تعبير جسدي كوسيلة أولى للتعبير.

وقد وفّرت الفضاءات الرياضية الأرضية الملائمة لانتشار العنف اللفظي باعتبارها المتنفّس الأول الذي يمكن من الكشف عن المخزون النفسي والاجتماعي للأفراد: فهو فضاء الحشد حيث تلتقي جماهير تحميها علاقات اجتماعية ذات طابع تقاعلي تتبني على أساس علاقات شخصية أو ذاتية بما يضمن لمختلف الفاعلين الاجتماعيين فرص التواصل والصراع والعنف في آن واحد. فأصبح الفضاء الرياضي من هذا المنطلق ملجأ ومتنفّسا خاصة مع غياب كافة أشكال المراقبة، وبذلك ينساق الفاعل الاجتماعي مع المجموعة تحت وطأة عديد التعبيرات والمؤثرات فيرتبط، بالتالي، تشكّل العنف بالسياق العام للمجتمع والمجال الرياضي.

ومن خلال جملة ملاحظات انطباعية يكاد الشارع التونسي يجزم أنّ الدوافع تكاد تنحصر في ضغوط المعيش اليومي الاجتماعي منها والنفسي والسياسي، مع الإصرار على عدم اعتباره ضربا من ضروب الانحراف القيمي

²³ لوسركل (جان جاك)، عنّف اللغة، ترجمة محمد بدوي، المركز الثقافي العربي، الدار العربية للعلوم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2005، ص 392.

²⁴ لوسركل (جان جاك)، مرجع سابق، ص 445.

²⁵ النفوطي (عبد الكريم)، الجمهور الرياضي وآليات تشكّل العنف، مذكرة لنيل الماجستير في علم الاجتماع، إشراف عبد الستار السحباني، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، تونس، 2014، ص 105.

أو الاجتماعي. وقد يكون من المفيد هنا أن نستجد بمفهوم التشكل اللغوي اقتباساً من المفهوم الماركسي التشكل الاجتماعي الذي سعى من خلاله Marx الوصول إلى "تبرير أو تفسير للمزيج المحدد لطرق الإنتاج بعضها مسيطر وبعضها الآخر سوف يحاول مجرد البقاء على قيد الحياة من ضمن الدولة أو الأمة في لحظة معينة من التاريخ".²⁶ وباتباع المنهج نفسه ومحاولة إسقاطه على اللغة العربية مثلاً، فإننا نتطرق هنا إلى بروز مصطلحات دخيلة عن اللغة فضلاً عن تكاثر اللهجات وأنواع الخطاب والأساليب "وترسب الظروف الماضية، وعن كتابة العداوات التاريخية كعداوة استطراذية وعن التعايش والتناقض بين أنساق النطق الجمعية المختلفة".²⁷

إذن، فقد أثرت أشكال العنف المختلفة في العلاقات التفاعلية بين الفاعلين الاجتماعيين داخل الفضاء الرياضي، وهو ما تؤيده الملاحظة الميدانية لمجموعات الألتراس في مجال كرة القدم. فالفضاء الاجتماعي المفتوح كفضاء كرة القدم مثلاً الذي يرتفع فيه تعداد الجماهير، تكثر فيه العلاقات الاجتماعية وتسيطر عليه الفئات المتعصبة، خاصة مع الغياب شبه التام لمختلف أشكال المراقبة (أمنية، أمنية...). فيصبح الفضاء أكثر ملائمة للتعبير عن الذاتية والبحث عن الهوية بانتهاء أساليب وممارسات إن دلت على شيء فإنما هي ترمز إلى حضور الذات من خلال السلوكيات التي تعاني القمع والرفض خارج الفضاء الرياضي. وهو ما نتجلاًه من خلال بعض السلوكيات الجماهيرية من خلال الاعتداء بالعنف اللفظي على أعوان الأمن أو أفراد منتمين إلى مجموعات تشجيع أخرى أو ضد اللاعبين أو ضد الجمهور المنافس.

ولعلّ تواتر مظاهر العنف اللفظي في الفضاء الرياضي اكتسب دلالة سوسيولوجية من خلال ديناميكيته داخل المجتمع التونسي حتى خارج أوقات المنافسات الرياضية وفضاءاتها حيث أصبحت الرياضة مرآة المجتمع لكونها مساهمة بصفة كبيرة في خلق نوع من التوتر الذي يهدد القيم والمعايير الاجتماعية المتعارف عليها والمألوفة.

ولم تدّخر مجموعات الألتراس، وبدون استثناء، في استعراض عضلاتها حينما تعلق الأمر بالعنف اللفظي خاصة مع محدودية التحصيل المدرسي لفئة واسعة من رواد المنعرجات Virage والذين يتحكمون في نسق الأهازيج وتوجهاتها فهم "ملوك الحرب" و"المجموعات التي خبرت الحرب" وهم الذين "لا يخشون الموت" على حدّ تعبير مختلف الأهازيج واللوحات الجماهيرية داخل الملعب (من خلال "الدخلة" وطقوس التشجيع المختلفة) وخارجه (خاصة Graffiti و Tag).

²⁶ لوسركل (جان جاك)، مرجع سابق، ص 398.
²⁷ لوسركل (جان جاك)، مرجع سابق، ص 398-399.

هذا العنف اللفظي هو في واقع الأمر لغة متحررة من القيود على اختلاف مصادرها ومشروعيتها. لغة "صريحة ومباشرة" توجه بصفة مباشرة للأفراد داخل الفضاء الرياضي وخارجه:

○ في الفضاء الرياضي، من خلال الصراع حول "الدخلة" أو الأسلوب الاستفزازي والمضايقات الذي تتبعه جماهير الملعب: من قبيل إلقاء القوارير أو الوقوف وسكب الماء على بعض الجماهير والتدافع حول "المواقع الإستراتيجية" في المدرج. مع العلم أنّ العنف اللفظي داخل الفضاء الرياضي لم يكن حكراً ولا حصراً ولا موجهاً لفئة دون أخرى، بل شمل كافة الفاعلين الرياضيين من حكام ولاعبين ومسيرين وأمن وصحافة وجمهور منافس...

○ خارج الفضاء الرياضي: نجده خاصة أثناء اقتناء التذاكر في شبابيك "الحديقة الرياضية" أو الملعب الأولمبي. ويفسر عموم المتابعين للمشهد الرياضي العنف اللفظي في مثل تلك المناسبات بمحدودية عدد التذاكر مقابل ارتفاع عدد الجماهير، إضافة إلى ما اعتبروه إجراءات استفزازية تصدر عن قوات الأمن خلال عملية بيع التذاكر أو سلطة الإشراف أي جامعة كرة القدم في التوزيع "غير العادل" لعدد المقاعد داخل الملعب.

هذا العنف اللفظي لم يقتصر فقط على الفضاء الرياضي ومجاله الزمني، بل إننا نلاحظ أنّ فئة الشباب على وجه الخصوص أصبحت تمارس هذا العنف داخل المعاهد وفي المقاهي وفي الشوارع فيما يعتبرونه طريقة للتعبير عن الانتماء للنادي والولاء له. وبذلك أصبح تشكل العنف متعلقاً بالتمثل الاجتماعي لهؤلاء الأفراد لجماهير الفرق المنافسة وهو ما نتجلاًه من خلال عبارات "جبورة" و"نزوح" و"زناطير" و"فرورخ" و"هدارة" وغيرها... إلى جانب تمثيلات ذات بعد سوقي ولا أخلاقي خاصة إذا ما تعلّق الأمر بإهانة وتقزيم الفرق الرياضية المنافسة وخاصة جماهيرها. ولا يشترط تبادل العنف اللفظي نبرة عالية ولا عبوس الوجه ولا إشهار الأسلحة "فالعنف الكامن في الإهانة ليس راجعاً إلى النبرة العالية للصوت الذي يحملها، بل إنها مقحمة في ممارسة راسخة في سلسلة من الألفاظ والحركات التعبيرية وسلسلة من التأثيرات والتوقعات شبه التقليدية".²⁸

وترتفع وتيرة المبادلات اللفظية العنيفة قبيل المباريات الكبرى أو المناسبات الرياضية الهامة. من ذلك مثلاً أحداث العنف التي اندلعت بين مجموعات تشجيع تنتمي لنفس الفريق بين مجموعتين في أكثر من مناسبة وعلى مدى عقد من الزمن أو ما يزيد.

²⁸ لوسركل (جان جاك)، مرجع سابق، ص 396-397.

4. العنف المادي في الفضاء الرياضي التونسي:

كما رصدنا في مختلف المناسبات وجود العنف المادي سواء بين المشجعين المنتمين إلى مجموعات التشجيع نفس الفريق فيما بينهم أو ضد الأمن أو ضد الجمهور المنافس. ومن مظاهر العنف المادي المتفشية أيضا العنف الموجه للممتلكات الخاصة (سيارات، واجهات محلات...) والعمومية (مدرجات الملعب، دورات المياه في الملعب، وسائل النقل العمومي من قطارات وحافلات...). فالعنف المادي، إذن، هو نتيجة حتمية لتفشي وانتشار العنف اللفظي خاصة وأن المشاحنات والتلاسن الذي يدور بين الأفراد والمجموعات داخل جماعة جماهيرية عادة ما يمر من طور النقاش العادي إلى النقاش الحاد وصولا إلى التشنج والاستفزاز وينتهي إلى تبادل العنف المادي والجسدي بين هؤلاء الأفراد. ومن ذلك مثلا ما يحصل خلال عملية بيع التذاكر من حمل للأسلحة البيضاء والغازا المشل للحركة والعصي، وكأنها حرب مصغرة على وشك الاندلاع. ولعل الدافع الأساسي لتمثل فئة الشباب هذه للعنف الجسدي، أنه أنجع وسائل الإخضاع والتخويف والسيطرة والهيمنة. فلا نستغرب في هذه الحالة وجود ردة فعل من الطرف المقابل تجاه هذا الاعتداء حتى وإن كان مجرد "تهديد بالعنف".

أما عن دوافع اللجوء إلى العنف المادي في الفضاء الرياضي فتختلف وتتعدد من فرد لآخر ليشمل الجماعة كلها تقريبا ولعل من أبرز أسباب تفشي العنف المادي ما أجمع حوله المهتمون بالمشهد الرياضي التونسي حيث اتفقوا على حصرها في: التذاكر، المواقع في الملعب، إلقاء القوارير والمقذوفات والشماريخ، الكلام البذيء، الحركات الجسدية اللا أخلاقية، الشجار حول مكان الـ **Bache** ومكان الدخلة. إلى جانب المشاكل الاجتماعية والسياسية وفي بعض الأحيان النفسية لبعض الأفراد والتي تعود إلى التنشئة الاجتماعية "بالقوة المادية لا يمكن القضاء عليها إلا بالقوة المادية أو ممارسة العنف".²⁹ فمن بين "أهم نتائج الاستبيان أن معظم عينة البحث تنتمي إلى أحياء شعبية أبرزها "ابن سينا" و"الجبل لحرر" و"الزهروني" و"الشعبية" و"الكرم الغربي" (وهي نفس المناطق التي انطلقت فيها شعلة مجموعات التشجيع أواسط تسعينات القرن الماضي) وهي مناطق اشتركت في خصائص الفقر والقمع والظلم والتهميش".³⁰ ومن هنا يأتي دور التنشئة الاجتماعية في تحديد العلاقات والسلوكيات بين مختلف الفاعلين داخل مجموعة التشجيع نفسها أو بين مجموعات التشجيع المختلفة سواء في نفس النادي أو في الفرق المتنافسة. فالفرق يحدد ميولاته وأهواه من خلال احتكاكه بواقعه المعيش والجماعة التي يعيشها فكأنما العنف هنا "نشاط متعلم". فحسب ما ورد في دراسة المرصد الوطني للشباب حول الشباب والعنف،³¹

²⁹ Chebchoub (Semia), **Sur La Violence**, Revue Tunisienne de Science Sociale, C.E.R.E.S, Tunis, P. 101.

³⁰ غابري (سيف)، الجمهور الرياضي في تونس: دراسة سوسيولوجية ثقافية، أطروحة دكتورا في العلوم الثقافية، تأطير الدكتور المنجي الزيدي، المعهد العالي للتشبيط الشبابي والثقافي بئر الباي، تونس، 2018، ص 334.

³¹ المرصد الوطني للشباب، الشباب في مواجهة العنف: دراسة تحليلية، تونس، 2020.

فإنّ هذه الفئة من الشباب تعاني القمع والتهميش والعنف تسلطه عليهم أكثر من مؤسسة اجتماعية بدءاً بالعائلة والمدرسة وصولاً إلى الشارع. وبما أنّ الفاعل "مطالب بخلق تلاؤم بين تمثله لذاته ودوره الاجتماعي"³² حسب تعبير Goffman، أصبح الملعب المتنفس الوحيد لإخراج ما اختزنه جرابهم من علّات أو فيروسات نفسية خاصة مع غياب كافة أشكال المراقبة داخل الفضاء الرياضي الذي أصبح يمثل الفضاء الوحيد للتعبير عن النفس بأساليب مختلفة تتسم بالفوضى والعنوانية متجسدة في العنف بمختلف أشكاله.

وقد عرضت القنوات التلفزية الناقلة لمباريات الرابطة الوطنية الأولى لكرة القدم جملة من اللقطات لقوات الأمن المحتشدة في منحرجات الملاعب Virage وتعزيزات أخرى على حافة الملعب ومجموعة أخرى تفصل بين دكتي الفرق المتنافسة على خط التماس. من ذلك مثلاً دخول لاعبي الترجي الرياضي التونسي والنجم الرياضي الساحلي في إطار منافسات رابطة أبطال إفريقيا بتاريخ 18 أوت 2012 إلى أرضية الملعب الأولمبي بسوسة مفصولين بجدار أمني عازل بين اللاعبين! هذا التصادم رافقه تصادم جسدي بين جماهير الفريقين شمل الممتلكات العمومية والخاصة خارج الملعب وصل إلى حدود "محطة الاستخلاص بهرقلة" بعد أكثر من 5 ساعات على نهاية المقابلة. كذلك كان الأمر فيما بات يُعرف بأحداث "السبت الأسود" في بنزرت بعد انتهاء المقابلة الرياضية بين النادي الإفريقي والنادي الرياضي البنزرتي وما شهدته مدينة بنزرت من أحداث دموية وخسائر مادية ومعركة ضروس امتدت إلى ساعات الصباح الأولى! ولعل الحادثة الأبرز، ربّما، هي ما يسميه جمهور الترجي الرياضي التونسي ثورة 8 أبريل 2010 في مباراة جمعت الترجي الرياضي التونسي ونادي حمام الأنف. هذه الأحداث بلغت درجة من العنف والانفلات إلى درجة سقوط العديد من الجرحى في صفوف الجماهير والأمن إضافة إلى وفاة عوني أمن.

مثيري الشغب هؤلاء، وحسب استنتاج انطباعي، بعد الملاحظة الميدانية هم من مستعملي الكحول والمخدرات وذوي السوابق العدلية ومطلوبين للعدالة في بعض الأحيان (وهو ما قد يفسر استعمالهم لأسماء مستعارة حماية لأنفسهم). فإذا ما اجتمعت الكحول والمخدرات والاستقرازمات وضغوط الحياة اليومية وضغط النتائج الرياضية (خاصة وأنّ بعض النتائج السلبية تؤثر بصفة تامة في سلوكيات الأفراد المتعصبين)، تأججت نار العنف الجسدي والمادي واللفظي بين مختلف الفاعلين الاجتماعيين.

³² Goffman (Erving), *Les rites d'interaction*, Ed. Minuit, Paris, 1974, P. 105.

III. الوساطة الثقافية: محاولة في حوكمة جمهور الملاعب

يمكن، إذن، تشخيص الظاهرة-المشكلة وحصرها في "فقدان القدرة على امتلاك الجمهور المناسب الذي يتعايش ويتفاعل مع الحركة التاريخية للمجتمع. وهو الجمهور الذي يبتعد يوميا عن هذه الحركة ليجد لنفسه فضاءات وأدوات جديدة تناسب حاجاته وانتظاراته".³³ وهو ما يجعل الجمهور النشط والفاعل يتعامل مع سلطتين: "الأولى تتمثل في المفهوم التقليدي للدولة عبر الجهاز البيروقراطي الذي يمتاز بالثقل في الحركة والصعوبة في تسويق الخطابات، والذي يفقد يوميا المزيد من الفاعلين والمشكلين له. والثانية سلطة الفضاءات الافتراضية سريعة الحركة والتفاعل، وذات العدد المتزايد من المنخرطين".³⁴

وهنا نجد أنّ الوساطة الثقافية من أهمّ المفاهيم المعاصرة والفاعلة التي تعتمد عليها الدول والشعوب الحية اليوم لتحقيق الانسجام الداخلي والوئام المجتمعي والتطور الذاتي. وتهدف الوساطة الثقافية إلى "تسهيل العلاقات بين المواطنين مع التركيز على التعرف والتفهم المتبادل، من أجل خلق علاقة إيجابية بينهم، من خلال إنتاج القدرة التحويلية والاعتراف بالآخر والإحساس به والاستماع الفعال له".³⁵

وفي حين تُعرّف الوساطة الاجتماعية على أنها "شكل من أشكال التدخل لتسوية المشاكل ذات الطبيعة الاجتماعية التي يمكن أن تنشأ داخل أي مكون من مكونات المجتمع الأساسية".³⁶ فكأنها طريقة بديلة لحل النزاعات بين طرفين أو أكثر لغاية بلوغ نتائج ملموسة وواضحة، يقتصر دور الوسيط أو الطرف الثالث فيها على متابعة الأطراف الأخرى في عملية التفاوض على تسوية أو حلّ للمشكلة موضوع النزاع سواء أكانت هذه المشكلة ذات طابع تجاري أو قانوني أو دبلوماسي أو اجتماعي أو عائلي. تمتد مهمة الوساطة الثقافية إلى تزويد المجتمع بالمعارف والقيم الرمزية وبناء الرأي العام وتشكيل وعي الجمهور ونقل المعرفة وتوزيعها في أوسع نطاق اجتماعي ممكن بعد أن يتم تبسيط مركباتها وتحويلها إلى مادة قابلة للاستقبال الاستيعاب. وقد تتعدّد الحلول أو المناهج المتبعة في سبيل تحقيق هدف التوسط حيث أنّ "أقلّ ما يمكن تقديمه هو الإشارة إلى القواعد العادية المستخدمة:

³³ بغداد (أحمد نحمد)، الوساطة الثقافية وإستراتيجية صناعة الجمهور، <http://nations-news.com/ar/2016/01/02> الوساطة-الثقافية- وإستراتيجية-صناعة-الجمهور، بتاريخ 2017/5/5 على الساعة 16:35.

³⁴ بغداد (أحمد نحمد)، مرجع سابق.

³⁵ بغداد (أحمد نحمد)، مرجع سابق.

³⁶ بن سويس (هالة)، الوساطة ودورها في المجتمع: تمثيلات الشباب لمؤسسة الزواج عبر ظاهرة "الخطابة الإلكترونية"، في الوساطة في المجتمع والثقافة، تقديم محمد مسعود إدريس، دار سحر للنشر، المعهد العالي للتنشيط الشبابي والثقافي بئر الباي، تونس، 2013، ص 127.

إتاحة الإمكانية لكل فريق أن يعرض وجهات نظره، الاستماع إلى الآخر، الصياغة الموضوعية للمصالح الحاضرة، تحاشي أن يقوم أحد المتخاصمين بفقد مكانته. هذه هي العناصر التي تسهل امتصاص الأزمات".³⁷

وعندما يتم مقارنة مفهوم الوساطة الثقافية مع ما تعانيه الثقافة التونسية اليوم، خاصة الثقافة الشبابية، في مختلف أنماط تجلياتها سواء أكانت خطابات سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو علمية أو غيرها، فإننا نستشف فقرا شديدا لهذه الثقافة في اكتساب مثل هذه الأدوات وفشلا كبيرا في التكيف معها واستيعابها.

ولعلّه من المهم التأكيد على أنّ الوساطة الثقافية تؤمّن مهمتين رئيسيتين في المجتمعات المعاصرة هما المرافقة الثقافية والتنشيط السوسيو ثقافي. فرهان الوسيط الثقافي* هو "المشاركة من خلال الثقافة في معالجة الظواهر الاجتماعية، باعتبار أنّ الوسيط الثقافي يمكن أن يكون فاعلا مساهما في تعديل السلوك الاجتماعي (...) أي التأكيد على الجانب العلائقي في الحياة الاجتماعية وليس الشيء في حد ذاته".³⁸ ولعلّ ما يهمنا في هذه المحاولة العلمية هو مهمة التنشيط السوسيو ثقافي التي من خلالها يساهم الوسيط الثقافي في "تيسير الحوار بين مختلف الجماعات التي تبني أشكالاً وممارسات ثقافية مختلفة ويدعم التحولات الاجتماعية الثقافية لإيجاد حلول لصراع القيم بالمعنى الأنثروبولوجي والسوسيو ثقافي".³⁹ وبهذا تصبح الوساطة الثقافية كأنها تكنولوجيا اجتماعية⁴⁰ كما عبّر عنها Christian Ruby.

إنّ مثل هذه الإشكاليات تندرج في سياق ما يُعرف بالصناعات الثقافية التي أخذت في السنوات الأخيرة أبعادا عالمية وآليات رقمية وتكنولوجية معقّدة في سعي دائم نحو تسويق القيم المتناسبة مع هوية المجتمع. ولكنّ الثقافة التونسية لا تزال بعيدة بمسافات عن المفاهيم الحديثة للصناعة الثقافية. والمشكلة الأساسية تكمن في ذهنية النخب الثقافية وأصحاب القرار السياسي-الثقافي، التي تصرّ على البقاء في دائرة النشاطات ولم تتمكن من الانتقال نحول العوالم الجديدة التي تستثمر في قدرات الإنسان ومواهبه وتطلعاته لتعمل على صياغة الإجابة التاريخية

³⁷ دورتيه (جان فرانسوا)، معجم العلوم الإنسانية، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت، 2009، ص 289. * الوسيط الثقافي هو "الطرف الذي يتموضع بين المنتج الثقافي ومستهلك ذلك المنتج (...). ويمكن أن يكون الوسيط الثقافي شخصا ماديا أو شخصا معنويا، كما يمكنه أن ينتمي للقطاع العام كما يمكن أن ينتمي إلى القطاع الخاص". فالوساطة الثقافية في معناها الأنثروبولوجي هي "كل ممارسة إنسانية ترتبط بسلوك ثقافي".

الطمني (منذر)، الوسيط الثقافي: الأدوار والرهانات، مهن التنشيط والوساطة والتحولات الاجتماعية، جمع وتقديم، محمد الحبيب الخضراوي، سلسلة علوم ثقافية، العدد 3، المعهد العالي للتنشيط الشبابي والثقافي بئر الباي، تونس، 2016، ص 63.

³⁸ الطمني (منذر)، الوسيط الثقافي: الأدوار والرهانات، مهن التنشيط والوساطة والتحولات الاجتماعية، جمع وتقديم، محمد الحبيب الخضراوي، سلسلة علوم ثقافية، العدد 3، المعهد العالي للتنشيط الشبابي والثقافي بئر الباي، تونس، 2016، ص 65، نقلا عن: Caune (Jean) ; La médiation Culturelle : Une médiation à bout de souffle ; P.U.G ; Grenoble ; 2008 ; P.132.

³⁹ الطمني (منذر)، مرجع سابق، ص 65.

⁴⁰ الطمني (منذر)، مرجع سابق، ص 65، نقلا عن: RUBY (Christian) ; Médiation Culturelle ; Dans Emmanuelle De Wares : Qu'il ; Dictionnaires des pratiques Culturelles ; 2001 ; P.400-401 : IN Cahier de l'action Culturelle.

للمجتمع، وتتدخل في توجيه عمل المنظومة القيمية التي تساعد المجتمع على الانسجام مع نفسه ومع حركة التاريخ.

من جهة أخرى، تتضمن منهجية الوساطة الثقافية صناعة الجمهور الذي يستهلك مخرجات هذه الصناعة على مختلف المستويات (الذوق الاجتماعي، القدرة على اتخاذ القرارات، الممارسات اليومية وغيرها...).

ومن أولى نتائج غياب الصناعة الثقافية،* غياب إستراتيجية واضحة أو رؤية وطنية شاملة لثقافة تستجيب لتطلعات الأجيال الجديدة وتجيب عن أسئلتها الحرجة. فالأجندات الثقافية اليوم غنية بالمواعيد والنشاطات "الرتيبة" التي تجتر نفسها ولا تقدم سوى المزيد من السطحية والتوسيع لمجالات الإحباط واليأس والسلبية في نسيج النفسية الاجتماعية. مما يجعل الجمهور "المستهدف" غير مبال بهذه النشاطات كونها لا تستجيب لانتظاراته وحاجاته واهتماماته. على اعتبار أن السواد الأعظم من الشباب يعيشون في عوالم بديلة وافتراضية حيث انفصلوا تماما عن الهوية الثقافية الذاتية وصنعوا لأنفسهم عوالم جديدة مكنتهم من تلبية حاجاتهم والإجابة عن تساؤلاتهم.

إنّ التشخيص الذي أوجزناه يحيلنا إلى طرح مسألة العنف الذي يسيطر على المتفاعلين في الفضاء الرياضي. نعلم جميعا تعدّد محاولات استنباط حلول لهذه المعضلة، كما نعلم أنها اتجهت غالبا نحو المقاربة الأمنية والقانونية. غير أننا نعتبر أنّ الأمر يتعلّق بالتفكير في حوكمة جمهور الملاعب ومراجعة المقاربة وذلك بالانتقال من مقاربة التعاطي مع عناصر خارجة عن القانون بما يحيل إلى المواجهة إلى مقاربة تعويض التعاطي بالتفاعل مع هذه المجموعات شرط التعرّف عليها وفهمها واستيعابها ضمن نظام حوكمة متكامل يشمل تأهيل الأمنيين وتمكينهم من أدوات فهم ومقاربة أكثر تنوعا وجدوى وقد نصل بالأمر حد اقتراح إدراج مناهج المقاربة الاجتماعية والثقافية لهذه المجموعات في تكوين الأمنيين أو معاضدتهم بمختصين ضمن فرق عمل متعدّدة التخصصات.

* وحتى النشاطات المبعثرة هنا وهناك لا تُنظّم بمنهجية محترفة، فهي تخلط بين الجماهيرية والتعبئة والفانتازيا والعبثية، ولا تُنسّق بين مختلف الأطراف الفاعلة. فتصبح بذلك أقرب إلى الشكائية والفئوية الضيقة، مجسدة أعلى معدلات مظاهر التخلف.

مختارات ببليوغرافية:

- أسعد وطفة (علي)، من الرمز والعنف إلى ممارسة العنف الرمزي: قراءة في الوظيفة البيداغوجية للعنف الرمزي في التربية المدرسية، مجلة شؤون اجتماعية، عدد 104، الإمارات العربية المتحدة، 2009.
- الذواوي (محمود)، قراءة أبجدية الثقافة بمنظور مختلف: الممارسة الثقافية في مجتمع المعلومات والاتصال، منشورات المركز الوطني للاتصال الثقافي، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، تونس، 2000.
- الطمني (منذر)، الوسيط الثقافي: الأدوار والرهانات، مهن التنشيط والوساطة والتحول الاجتماعي، جمع وتقديم، محمد الحبيب الخضراوي، سلسلة علوم ثقافية، العدد 3، المعهد العالي للتنشيط الشبابي والثقافي بئر الباي، تونس، 2016.
- الكشوري (غسان)، الرمزية في العنف... داعش كنتيجة، <http://www.thewhatnews.net> بتاريخ 2017/10/28 على الساعة 00:10.
- النفوطي (عبد الكريم)، الجمهور الرياضي وآليات تشكّل العنف، مذكرة لنيل الماجستير في علم الاجتماع، إشراف عبد الستار السحباني، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، تونس، 2014.
- بارط (رولان)، مبادئ في علم الأدلة، ترجمة محمد البكري، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط2، دمشق، 1987.
- إدريس (محمد مسعود) وآخرون، في الوساطة في المجتمع والثقافة، دار سحر للنشر، المعهد العالي للتنشيط الشبابي والثقافي بئر الباي، تونس، 2013.
- بودون (ريمون)، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة سليم حدّاد، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 1، الجزائر، 1986.
- بوعزيزي (محسن)، السيميولوجيا الاجتماعية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2010.
- توفيق إبراهيم (حسن)، ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 1992.
- دورتيه (جان فرانسوا)، معجم العلوم الإنسانية، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع وهيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، بيروت-أبو ظبي، ط 1، 2009.
- زغفران (العبيدي روضة)، شلبي (جلّول)، العبيدي (حافظ)، جرائم العنف لدى الشباب التونسي: دراسة علمية ميدانية، مركز الدراسات القانونية والقضائية، وزارة العدل، تونس، 2013.
- سلامة (عبد الحميد)، الرياضة: مظاهرها السياسية والاجتماعية والتربوية، الدار العربية للكتاب، تونس، 2005.
- طعم الله (خميس)، مناهج البحث وأدواته في العلوم الاجتماعية، مركز النشر الجامعي، تونس، 2004.
- غابري (سيف)، الجمهور الرياضي في تونس: دراسة سوسيوقانونية، أطروحة دكتورا في العلوم الثقافية، تأطير الدكتور المنجي الزيدي، المعهد العالي للتنشيط الشبابي والثقافي بئر الباي، تونس، 2018.

- لوسركل (جان جاك)، **عنف اللغة**، ترجمة محمد بدوي، المركز الثقافي العربي، الدار العربية للعلوم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2005.
- ماتلار (أرمان وميشال)، **تاريخ نظريات الاتصال**، ترجمة نصر الدين لعياضي والصادق رابح، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2005.
- مذكور (إبراهيم)، **معجم اللغة العربية: المعجم الفلسفي**، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1982.
- مولر (جان ماري)، **اللاعنف في التربية**، ترجمة محمد علي عبد الجليل، معابر للنشر والتوزيع، ط1، دمشق، 2009.
- Aebischer (Verena), Oberlé (Dominique) ; **Le groupe en psychologie sociale** ; Ed. DUNOD ; 4è Edition ; Paris ; 2012 ; P.25.
- Bourdieu (Pierre) ; **Questions de Sociologie** ; Cérès Productions ; Tunis ; 1993.
- Bourdieu (Pierre), Passerons (Jean Claude), **La Reproduction Elément Pour la Théorie Du Système D'enseignement**, Ed. Minuit, Paris, 1970.
- Bourdieu (Pierre), **Sur le Pouvoir Symbolique**, Ed. Minuit, Paris, 1997.
- Caune (Jean) ; **La médiation Culturelle: Une médiation à bout de souffle** ; P.U.G ; Grenoble ; 2008.
- Chebchoub (Semia), **Sur La Violence**, Revue Tunisienne de Science Sociale, C.E.R.E.S, Tunis.
- Goffman (Erving), **Les rites d'interaction**, Ed. Minuit, Paris, 1974.
- Moray (Frank), **Football et Politique à Tunis**, Correspondance Bulletin scientifique d'IRMC, No 48, Décembre 1997.
- RUBY (Christian) ; **Médiation Culturelle** ; Dans Emmanuelle De Wares Quiel ; Dictionnaires des pratiques Culturelles ; 2001 ; IN Cahier de l'action Culturelle.